أدب الرحلات

ابن جبير الرحالة الأديب

الدكتور/ علي مفتاح راشد الهندي أستاذ مساعد جامعة الزاوية / ليبيا

مقدمـة

لقد عرف المسلمون والعرب الأوائل الرحلات، ومارسوا الترحال في شبه الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها، وقاموا بالعديد من الرحلات التي جالوا من خلالها العالم في جميع الاتجاهات، حيث أبحرت سفنهم معظم الأماكن، وقد دون هؤلاء الرحالة رحلاتهم، واستمدوا معانيهم وموضوعاتهم من تلك المشاهدات وصاغوها بشكل فني خاص.

وكانت تلك الرحلات قد لعبت دورها المهم والفاعل في تطوير المعارف الانسانية المختلفة، وعلى جميع الأصعدة والتخصصات على مرّ السنين، ولا زالت إلى يوما هذا .

التعريف بصاحب الرحلة

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة [1] من قبيلة كنانة المضرية العدنانية [2] أندلسي، شاطبي، بلنسي [3] صاحب الرحلة [4] ولد في بلنسية ليلة السبت في العاشر من ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة للهجرة [5] وقيل ولد في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة [6]، وسمع العلوم من أبيه بشاطبة، ومن أبي عبد الله الأصيلي، وأبي الحسن بن أبي العيش، وأخذ عنه القرآت، وعُني بالأدب فبلغ الغاية فيه، وتقدم في صناعة الشعر والكتابة [7]، وله في علم الحساب والعلوم اللغوية، وأظهر مواهب أخرى رشحته للعمل كاتبا.[8]

وصفه لسان الدين بن الخطيب بأنه " كان أديبا بارعا، شاعرا مجيدا سنيا فاضلا، نزيه المهمة، سري النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة". [9]

ولم تقم شهرته إلا في كتابه هذا المعروف" برحلة ابن جبير" الذي ألفه بعد قيامه برحلاته الثلاث،أهمها هذه الرحلة التي استغرقت ثلاث سنوات بدأها سنة 578هـ، وختمها سنة 581هـ [10]، وتوفي رحمه الله سنة 614هـ، حيث أكد ابن تغري بردي وفاته في هذه السنة، حيث قال: " وفيها توفي أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الإسكندراني بها، وله أربع وسبعون سنة". [11]

مفهوم أدب الرحلة

لأدب الرحلة مفاهيم وتعريفات عدّة، حيث عُرّف بأنه " ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور أثناء رحلة قام بها إلى أحد البلدان" [12].

وهناك من يعرّفه بأنه نوع من النثر الأدبي يستمد موضوعاته من الرحلات ويكتب بلغة أدبية[13]، ومن خلال هذين التعرفين يمكن أن نستنتج تعريفا آخر فنقول: بأن أدب الرحلات هو ذلك النثر الفني الذي يسجل فيه الرحالة الأديب كل ما شاهده من مدن وآثار، وعجائب أثناء رحلته بأسلوب أدبي ممتع ومؤثر، وليس وصفا تاريخيا أو جغرافيا فقط.

وقد وجد هذا اللون من الكتابة في الأدب العربي منذ القرن العاشر الميلادي تقريبا، وما يزال مستمرا في عصرنا الحالي، ويشهد تطورا مستمرا في موضوعه [14].

أما الرحلة فهي اسم للارتحال، والارتحال يفيد الانتقال [15]، والانتقال والتنقل يعطي للرحلة فضاءين الأول اصلي يمتلكه، والفضاء الثاني يقتحمه الرحالة فيلاحظ ويشاهد مجموعة من الأشياء المادية، ويفكر في قضايا أخرى روحية، كل ذلك يتم من خلال رحلته التي يجسدها وقوفه عبر محطات جغرافية وثقافية وعمرانية جديدة وغريبة عن مسامع وتجربة الرحالة الحياتية في وطنه الأصلي.[16]

لمحة تاريخية عن الرحلات في التاريخ العربي الإسلامي

لقد عرف العرب الأوائل السفر، ومارسوا الترحال منذ القدم في شبه الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها، وقاموا برحلتي الشتاء والصيف اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم، وأبحرت سفنهم المحيطات شرقا وغربا، وعندما جاء الإسلام وسّع بدوره آفاق الرحلات العربية، وعدد دوافعها، حتى بلغت ذروتها وعلاء شأنها، ووصلت إلى ما وصلت إليه، وبخاصة خلال الفتوحات الإسلامية، وما تلاها من عصور الانفتاح والاستقرار، حتى القرن الخامس الهجري[17]، ولعل أقدم الرحلات رحلة التاجر السيرافي في القرن الثالث الهجري، وحلة سلام الترجمان إلى جبال القوقاز، ثم رحلات المسعودي والمقدسي، والإدريسي الأندلسي، وعبد اللطيف البغدادي، ورحلة البيروني، وأحمد بن جبير [18]، ولكن لم يستمر ذلك الازدهار طويلا، بل بدأت معالم التدهور تصيب كل مجالات الحياة بما في ذلك الرحلات، فضعف نشاطها فيما عدا بعض الاستثناءات التي تمثلت في رحلات ابن بطوطة، ورحلات المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون الذي نوه عن أهمية الرحلات [19]، واستمر حال الضعف إلى العصر الحديث الذي حرك بدوره بعض الأقلام التي حاولت النهوض بأدب الرحلات من جديد على يد بعض الرحالة والمؤلفين .

دوافـع الرحلـة

للرحلة دوافع كثيرة متعددة منها ما كانت لطلب العلم والاستفادة من العلماء، حيث نوه العلامة ابن خلدون على ذلك قائلا : " فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال

بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال". [20]، وقد تكون بقصد الحج وهو من أهم الدوافع التي دفعت المسلمين للرحلة باعتبارها الرحلة التي يتشوق إلى أدائها كل المسلمين، وبخاصة العلماء والفقهاء، ولم تقتصر دوافع الرحلة عن التزود بالعلم والحج فقط، بل كانت التجارة من الدوافع المهمة للقيام بالرحلة والسفر، إضافة إلى الرحلات التي تختص بالمهمات الرسمية.[21]

أما أديبا الرحالة ابن جبير، فقد كان دافعه لهذه الرحلة الحج وزيارة البقاع المقدسة، بالإضافة إلى الاطلاع وحب المعرفة بزيارة بعض الأماكن الأخرى، ولرحلته إلى البقاع سبب قوي مفاده أن صاحب مدينة غرناطة قدى استدعاه ليكتب عنه " كتابا وهو على شرابه، فمد يده إليه بكأس فأظهر الانقباض، وقال: يا سيدي ما شربتها قط، فقال: والله لتشربنّ منها سبعا، فلما رأى العزيمة شرب سبع أكؤس، فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات وصب ذلك في حجره، فحمله إلى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير، ثم رغب إلى السيد، وأعلمه أنه حلف بأيمان لا خروج له عنها أنه يحج في تلك السنة، فأسعفه، وباع ملكا له تزود به، وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر "[22]، وحدث له ما تمنى فحج ليكفّر عن ذنبه الذي أكره عليه من قبل السيد.

رحلـة ابـن جبيـر

لقد رحل ابن جبير من الغرب إلى الشرق، ومر بالعديد من البلدان وشاهد الكثير من المشاهد، ووصف كل ما شاهده من مدن ومساجد، ومعالم وأطعمة ومرافق عامة، وغير ذلك من الأشياء نذكر منها :

أولا- وصف المدن

غادر ابن جبير وصاحبه أحمد بن حسان غرناطة يوم الخميس 8 شوال سنة 578هـ، وعبرا البحر متوجهان إلى الإسكندرية، حيث سارت بهما السفينة تتقاذفها الأمواج، ومرت بالعديد من الشواطئ والصعاب التي واجهتها في عرض البحر، حتى وصلت ميناء الإسكندرية يوم 29 مارس، حيث استغرقت الرحلة ثلاثين يوما، وكان أول ما شاهده ابن جبير وصاحبه عملية التفتيش في الميناء ، حيث قال: " فمن أول ما شهدناه فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه. فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا . . .وسئل كل واحد عما لديه من سلع. . . ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول " [23]، ثم ما لبث أن تحدث عن أخبار الإسكندرية وآثارها، فوصف منارها وذكر بأنه من عجائب المدينة قائلا: " ومن أعظم ما شهدناه من عجائبها المنار الذي قد وصفه الله عز وجل على يدي من سخر لذلك آية للمتوسمين، وهداية للمسافرين . . . يظهر على أزيد من سبعين ميلا. ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضا، يزاحم الجو سموا وارتفاعا يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف". [24]

كما وصف مكة المكرمة وشبهها بالعروس ليلة زفافها، وتحدث عن جمالها الباهر بأسلوب أدبي، فقال: " ودخلنا مكة . . . وكان إسراؤنا تلك الليلة المذكورة، والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه، والليل قد كشف عنّا قناعه. . . فهي عروس ليالي العمر وبكر بنيات الدهر. إلى أن

وصلنا في الساعة المذكورة من اليوم المذكور، حرم الله العظيم ومُبوّأ الخليل إبراهيم. فألفينا الكعبة الحرام عروسا مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمن".[25]

ووصف كذلك مدينة دمشق، وكان دقيقا في وصفه إياها، حيث ذكر كل ما تحتويه المدينة من مناطق ومياه، وحدائق خلابة، وكان من خلال وصفه أن أبرز لنا العنصر الأدبي الذي تمثل في جمال اللفظ، وحسن التركيب على النحو الذي ورد في قوله : " جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، وقد نحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين. . . قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظماء. . . قد احدقت البساتين بها أحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر. . . ولله صدق القائلين عنها : إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تُسامتها وتحاذيها ".[26]

وقد وصف مدينة حمص، وأوضح في وصفه إياها النواحي الجمالية التي برزت من خلال ألفاظه، وحسن تعبيره في وصفها: " هي فسيحة الساحة، مستطيلة الساحة، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة، موضوعة في بسيط من الأرض عريض مداه، لا يخترقه النسيم بمسراه، يكاد البصر يقف دون منتاه، أفيح أغبر، لا ماء ولا شجر، ولا ظل ولا ثمر، فهي تشتكي ظماءها، وتستقي على البعد ماءها"،[27] ثم وصف مظاهر الحياة في مدينة مسينة من جزيرة صقلية بلغة أدبية وتصوير شائق، قائلا: " هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار مظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها لمسلم قرار. . . وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف. وكفى بأنها ابنة الأندلس في شقة العمارة، وكثرة الخصب والرفاهة، مشحونة بالأرزاق على اختلافها، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها".[28]

ثانيا- وصف المساجد والمرافق

لقد وصف ابن جبير الكثير من المساجد والبقاع الدينية، والمرافق العامة، لكن سيقتصر الباحث عن بعض المساجد التي توقف في وصفها كثيرا، كالمسجد الحرام، ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث ذكر في المسجد الحرام عدد أبوابه وارتفاعه وأركانه، بقوله : " البيت المكرم له أربعة أركان. وهو قريب التربيع. وأخبرني. . . محمد بن اسماعيل بن عبد الرحمن أن ارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يقابل باب الصفا وهو من الحجر الأسود، إلى الركن اليماني، تسع وعشرون ذراعا، وسائر الجوانب ثمان وعشرون، بسبب انصباب السطح إلى الميزاب".[29]

ومن خلال رحلته زار ابن جبير مسجد مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ثم وصف ذلك المكان الطاهر الذي شهد مولد س يد الكائنات قائلا : " وفي يوم الاثنين الثالث عشر منه دخلنا مولد النبي صلى الله عليه وسلم. وهو مسجد حفيل البنيان، وكان دارا لعبد الله بن عبد المطلب . . . صفة صهريج صغير سعته ثلاثة أشبار وفي وسطه رخامة خضراء سعتها ثلثا شبر مطوقة بالفضة"،[30] ثم وصف أيضا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووصف روضته المقدسة، فقال : " المسجد المبارك مستطيل، وتحفه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به، ووسطه كله صحن مفروش بالرمل والحصى، فالجهة القبلية منها لها خمسة بلاطات مستطيلة من غرب إلى

الشرق، والجهة الشرقية لها ثلاثة بلاطات، والجهة الغربية لها أربع بلاطات. . . والروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلية مما يلي الشرق؛ وانتظمت من بلاطاته مما يلي الصحن في السعة اثنين ونيّفت إلى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار، ولها خمسة أركان بخمس صفحات، وشكلها شكل عجيب، لا يكاد يأتي تصويره ولا تمثيله، والصفحات الأربع محرّفة من القبلة تحريفا بديعا"[31].

وأما بالنسبة لوصفه للمرافق، فقد وثق الرحالة مشاهداته للحصون، والأبواب، والمنازل والشوارع اتي مرّ بها أثناء رحلته، فمن ضمن وصفه للحصون ما ذكره عن حصن الكرك باعتباره الحصن الذي شهد الحرب بين المسلمين بقيادة البطل صلاح الدين الأيوبي، والنصارى قائلا : " حصن الكرك وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلا، وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة"[32]، ومن ضمن وصفه للمرافق أيضا ما اثبته من معلومات حول أبواب بغداد الشرقية، عندما قال: " وللشرقية أربعة أبواب : فأولها وهو في أعلى الشط، باب السلطان، ثم باب الطفرية، ثم يليه باب الحلبة، ثم باب البصلية. هذه الأبواب التي هي في السور المحيط بها من أعلى الشط إلى أسفله. هو ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة. وداخلها في الأسواق أبواب كثيرة"[33]، وغيرها من المرافق الأخرى الموجودة في الرحلة .

ثالثا- وصف الأطعمة والخيرات

كان ابن جبير دقيقا في كل ما شاهده أثناء قيامه بالرحلة، فلم يترك شيئا رآه إلا اثبته، ووصفه بأسلوبه المميز، وكان وصفه في هذه المرة خاص بالأطعمة والفواكه والخيرات، وبخاصة التي خص الله بها مكة المكرمة، فهي ملتقى الصادر والوارد كما ذكر، والثمرات والخيرات تجبى إليها من كل مكان، وكان يتوقع ابن جبير أن بلاده الأندلس هي التي بها من الخيرات ما لا يوجد في غيرها من بلاد العالم، فتحدث عن خيرات مكة واصفا إياها بقوله : " وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفناها تغص بالنعم والفواكه: كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ"[34]، ولم يقف ابن جبير عن وصف تلك الأشياء فقط، بل وصف أيضا ما يوجد فيها من ألبان وقصب السكر، والحلوى واللحوم، ثم ختم حديثه عن ذلك الماء المبارك ماء زمزم، فقال : " وأنواع اللبن بها في نهاية من الطيب، وكل ما يصنع منها من السمن، فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيبا ولذاذة. . . وبها قصب السكر أيضا كثير. . . وأما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات الشيء . . . وأما لحوم ظأنها فهناك من العجب العجيب، قد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق وضرب نواحي الأقطار أنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا . . . وهذا الماء المبارك في أمره العجب، وذلك انك تشربه عند خروجه من قرارته، فتجده في حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئا، وتلك فيه من الله آية وعناية"[35]، ثم تحدث أيضا عن بعض الأرزاق والفواكه الموجودة في مدينة مسينة من جزيرة صقلية، فوصف خيراتها قائلا : " وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف، وكفى بأنها ابنة الأندلس في سعة العمارة،

وكثرة الخصب والرفاهة، مشحونة بالأرزاق على اختلافها، مملؤة بأنواع الفواكه وأصنافها . . . وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح والشاه بلوط والبندق والإجاص، وغيرها من الفواكه"[36]، وغير ذلك مما وصفه من الأطعمة، لكن الباحث أكتفى بذلك على سبيل التمثيل لا الحصر .

رابعا- ذكر سيرة صلاح الدين الأيوبي

فقد تحدث ابن جبير عن سيرة البطل صلاح الدين الأيوبي، وآثاره ومناقبه وعدله، حيث قال فيه : " ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى وآثاره التي أبقاها ذكرا جميلا للدين والدنيا: إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيدين. . . ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفا فيما يعنيهم ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم"[37]، ثم ذكر في موقع آخر للرحلة بعض الأعمال التي قام بها تجاه مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال : " ومن مفاخره ومناقبه أيضا انه جعل مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم تحت سورين عتيقين انفق فيها أموالا لا تحصى كثيرة . ومن أعجب ما وفقه الله تعالى إليه أنه جدد أبواب الحرم كلها، وجدد أبواب الكعبة المقدسة وغشّاه فضة مذهبة"[38]، ثم تحدث عن سيرة الملك غليام أحد ملوك مدينة صقلية الذي حكم من سنة 1166م وحتى سنة1189م، ومعاملته الطيبة للمسلمين، حيث قال فيه : " وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب، وكلّهم أو أكثرهم كاتم إيمانه متمسك بشريعة الإسلام، وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله. . . وله جملة من العبيد السود المسلمين، وعليهم قائد منهم"[39]، ثم يذكر حالة المسلمين في دولته : " وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن. ومن أعجب ما حدثنا به خديمه . . . أن الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة، تعيدها الجواري المذكورات مسلمة، وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله، ولهن في فعل الخيرات أمور عجيبة".[40]

الخصائص الفنية للرحلة

بناء الرحلة

لقد حرص ابن جبير على الاهتمام ببناء كتاب رحلته من خلال اهتمامه بتدبيج رحلته؛ بقصد التعبير عما جاء فيها من أوصاف ومعلومات حول البلدان التي مرّ بها؛ فافتتحها بالبسملة تبركا بالابتداء بها، وقد جعلها في سطر لوحدها، وتبع تلك البسملة بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك كما جاء في افتتاحية الرحلة : " بسم الله الرحمن الرحيم، اللهمّ صلّ على سيدنا محمد وأله وصحبه وسلم"[41]، ثم تجول في العالم وسجل ملاحظاته تجاه ما شاهد من مناظر، ثم ختم رحلته بالحمدلة، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى كافة المرسلين، كما جاء في نهاية الرحلة : " والحمد لله على الصنع الجميل الذي أولاه، والتيسير والتسهيل الذي والاه، وصلواته على سيد المرسلين الأولين منهم والآخرين محمد رسوله الكريم ومصطفاه، وعلى أله وأصحباه الذين اهتدوا بهداه، وسلّم وشرّف وكرّم".[42]

وهكذا، فقد كان بناء هذه الرحلة يشبه إلى حد كبير بناء الرسائل، فعادة الرسائل أن تفتتح بالبسملة فيما يكتب من أوصاف المكاتبات، وغيرها، وهو ما اشترطه الكاتب الكبير القلقشندي بقوله في بنية الرسالة : " أن تفتتح بالبسملة فيما يكتب من أصناف المكاتبات. . . وأن يفردها في سطر لوحدها تبجيلا وتعظيما لأمر الله".[43]، فلأجناس الأدبية، وبخاصة النثرية كثيرا ما تتشابه فيما بينها من حيث بعض الخصائص .

الألفاظ والجمل والأساليب

إن اللغة أساس النص الأدبي الجيد، وإن الأديب المتمكن هو الذي يملك هذه اللغة ويفكر في تراكيبه ثم ينشئ بها أدبه؛ فإذا كانت لغته رديئة لم ينفعه تفكيره ولا معانيه، فقيل إيراد النص الأدبي لا بد للأديب أن يتمكن من لغته.[44]

واللغة ألفاظ ومعانٍ ولا بد أن تتألف مع بعضها بحيث " تكون الألفاظ موافقة للمعاني"[45]، ومن المعروف أن اللفظة الواحدة لا تستطيع إيراد المعنى الصائب لوحدها، وإنما لا بد من أن تتألف مع غيرها من الألفاظ، كي لا يأتي " الكلام قلقل نافرا عن مواضعه".[46]

وألفاظ ابن جبير في رحلته ألفاظ دقيقة فصيحة منسجمة مع بعضها من حيث التركيب كالعقد المنظوم، وسمة الجزالة تمثل أكثر ما دون في رحلته، ولا غرو فهو لغوي، وكاتب ، وشاعر، إضافة إلى تأثره بالقرآن الكريم، حيث تتضح قدرته العجيبة في ترتيب الألفاظ وتنسيقها على وزن واحد، حيث نجد ذلك في وصفه لأهل مدينة دمشق ورتبهم في جنائزهم، قائلا : " ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانهم . . . فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو مُحييه أو زكيه أو نجيبه"[47]، وكذلك قوله في وصف مدينة نصيبين، حيث أختار في ذكرها العديد من الألفاظ الجزلة، وقال فيها : " شهيرة العتاقة والقدم، ظاهرها شباب، وباطنها هرم، جميلة المنظر، متوسطة بين الكبر والصغر، يمتد أمامها وخلفها بساط أخضر من البصر"[48]، وغيرها من الألفاظ الجميلة التي اجتمعت فيها الجزالة مع سهولة المعاني التي خص بها كتاب رحلته .

وقد رتب الرحالة كل تلك الألفاظ في جمل خبرية أحيانا قصيرة، وأحيانا أخرى طويلة، كقوله في وصف المدينة التي هي حضرة صقلية: " هي بهذه الجزائر أم الحضارة، والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر، ومراد عيش يانع أخضر، عتيقة أنيقة، مشرقة مونقة".[49]

أما الأسلوب، فهو المنوال الذي ينسج فيه الكاتب التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه[50]، ويمكن تعريفه بأنه المنهاج الذي ينتهجه الأديب في التعبير عما يجول في خاطره من معانٍ وعواطف، وأفكار بصورة صحيحة مؤثرة تنقل لنا مدى إحساسه وشعوره بفنه .

وفي رحلة ابن جبير يتنوع الاسلوب من السرد القصصي إلى الوصف، وإلى غير ذلك، ولكن أبرز ما يميز الكتابة في كتاب رحلته أسلوب الكتابة القصصي الذي اعتمد فيه الكاتب عن السرد المشوق بما قدمه من متعة ذهنية، حيث عمد الرحالة في أسلوبه إلى الاقتباس من القرآن الكريم، والتأثر بآيته، والاستشهاد بالأشعار، كما جاء في وصفه لمدينة عكة : " هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام[51]، مرفأ كل سفينة"[52]، وكما جاء أيضا في وصفه لأهوال البحر عندما شارفت سفينتهم على الغرق، وهو على مشارف مدينة مَسّينة قائلا : " فتمكن حينئذ اليأس من النفوس، وفي أثناء مكايدة هذه الأحوال أسفر الصبح، فجاء نصر الله[53] والفتح".[54]

وقد استشهد ببعض الأشعار كما ورد في حديثه عن ثورة الريح الشمالية، والرياح العاصفة الغربية :

البحرُ مُرُّ المذاقِ صَعبٌ لا جُعلتْ حاجتي إليهِ

أليس مـاءً ونحـن طِـنٌ فما عسى صبرُنا عليهِ[55]

وغير ذلك الكثير من الاقتباسات، والأشعار المضمنة التي كان هدفه من إيرادها هنا تأكيد الكلام، وإثارة التشويق لدى القرّاء .

وقد استخدم ابن جبير فنون البلاغة لدعم أسلوبه القصصي، وبخاصة فن السجع، والطباق، والتشبيه، وذلك بقصد إضفاء الحيوية، وإبعاد الملل الذي قد يحيط بالقارئ، حيث يشع السجع، أو النثر المقفى في مواضع مختلفة من الكتاب، وذلك كما جاء في وصفه لمدينة منبج : " بلدة فسيحة الأرجاء، صحيحة الهواء، يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء، جوها صقيل، ومجتلاها جميل، ونسيمها أرج النشر عليل"[56]، وكما ورد أيضا في وصف مدينة حلب : " بلدة قدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير، ومحلها من التقديس أثير"[57]، وغير ذلك الكثير مما ذكره في وصف البلدان بالجمل السجعية القصيرة والطويلة المحكمة .

وقد لف الطباق معظم أوصاف ابن جبير التي أحاطت بأسلوبه القصصي السردي، حيث نجد الطباق قد توفر في وصفه لهكيل البربا الموجود في مدينة إخميم المصرية في قوله : " وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج، والمصاعد والمعارج، والمسارب والموالج ما تضل فيه الجماعات من الناس ولا يهتدي بعضهم لبعض إلا بالنداء العالي"[58]، وأيضا عند سرده لذكر مدينة نصيبين قائلا : " شهيرة العتاقة والقدم، ظاهرها شباب، وباطنها هرم، جميلة المنظر متوسطة بين الكبر والصغر[59]، وغير ذلك من المقابلات والطباقات التي زادت من قوة المعنى في أوصافه للبلدان .

وقد لعب التشبيه والاستعارة لعبتهما في هذه الرحلة وصارا في معظم أوصافه، ولكن سنقتطف شيئا منهما للتدليل فقط لا الحصر، ففي التشبيه نجد ابن جبير قد استخدمه في وصف مدينة رأس العين قائلا بأن : " الله تعالى فجر أرضها عيونا واجراها ماءً معينا، فتقسمت مذانب وانسابت جداول تنبسط في مروج أخضر، فكأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد"[60].

أما الاستعارة، فإنها تمثلت في وصفه لمدينة مكة قائلا : " ودخلنا مكة . . . وكان إسراؤنا تلك الليلة المذكورة، والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه، والليل قد كشف عنّا قناعه"[61]، إلى غير ذلك من الخيالات الاخرى التي لفت أوصاف الرحلة، والتي كان القصد منها توضيح الحس القصصي في سرد الأحداث والمواقف والمشاهد التي تعمل على إثارة التشويق لدى القرّاء، وتعد أيضا دليلا على امتلاك الرحالة الأديب لناصية السرد، والقدرة على جذب الانتباه وحسن الختام بشكل مميز ومؤثر في العواطف .

العـاطفـــة

هي" تنظيم وجداني ثابت نسبيا ومركب من عدة استعدادات انفعالية تدور حول موضوع معين قد يكون شيئا أو شخصا أو جماعة أو فكرة"[62]، وهي عنصر مهم من عناصر نجاح العمل الأدبي، وقد عدها النقاد والأدباء مقياسا من مقاييس الأثر الأدبي، ورأوا أن وجودها ضروري في إبراز القيمة الفنية للنص الأدبي بعامة، ولم يغفل ابن جبير دور عاطفته تجاه مشاهداته، حيث اظهر عاطفته الدينية القوية عند وصفه للمدن، فكان " يختم كل كلام بالدعاء إلى الله تعالى والتوكل عليه جل جلاله، وهذه العاطفة المتقدة دفعته إلى إرسال الأدعية للمدن التي مرّ بها . . . وقد كان يفتنه كل ما يشاهده، فكل مشهد يقيد الأبصار ويستوقف المستوفز تعجبا"[63]وسنأخذ شيئا من تلك الأدعية الصادقة لبعض المدن والمشاهد، وذلك كقوله لمكة: " وقد كمل لنا بمكة شرّفها الله تعالى . . . فأوزعنا الله شكر هذه المنّة وعرفنا قدر ما خصنا به من نعمة، وختم لنا بالقول، وأجرانا على كريم عوائده"[64]، ودعائه أيضا على شخص مغربي قد صاحبه من دمشق إلى عكة كان قد نبذ دين الإسلام وتنصر، فجاء ابن جبير بالدعاء التالي : " نسأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والآخرة، ولا يعدل بنا عن الملة الحنفية، وأن يتوفانا مسلمين"[65]

وكان الرحالة ابن جبير كلما مر بمدينة، أو مكان دعا لهما بشرفها الله تعالى أو حرسها الله تعالى، أو حماها الله، أو عمّره الله تعالى، وإذا كانت تلك المدينة التي مر بها كانت من المدن التي تحت سيطرة الفرنجة، أو من المدن التي خرجت من يد المسلمين دعا عليها بمقولة (فتحها الله، أو وأعادها الله تعالى، أو دمرها الله وأعادها، وأيضا دمرها الله تعالى، وهكذا كل تلك الأدعية كانت تنم عن عاطفة دينية قوية كانت تصدر من أديب أحس بإسلامه وعروبته تجاه مدنه العربية والإسلامية.

الخـاتمـة

بعد تتبع هذه الرحلة بالدراسة والتحليل وجدت أن هذه الرحلة هي شكل فني خاص، وليست تخيلا، وقد رتبها صاحبها ترتيبا زمنيا لتكون سردية متصلة ومتماسكة بين مراحلها، وصاغها بأسلوب واضح تميز بقدرته الأدبية على جذب القارئ، وإن هذا الرحالة قد أصبح مؤرخا وجغرافيا، إضافة إلى أنه أديب بارع، وإن الرحلة بشكل عام تعد موسوعة معلومات ومعارف إنسانية يتطلب الرجوع إليها والاستفادة منها .

هوامش البحث ومصادره

1- أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، لا. ت، لا. ط، ج3، ص142.

2- الموسوعة الحرة، مقال منشور بتاريخ 2 ديسمبر 2013م، ص1.

3- ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، لا. ت، لا. ط، ص5.

4- لجنة من العلماء، الموسوعة العربية الميسرة، إشراف، محمد شفيق غربال، دار نهضة بيروت، طبعة 1980م، ص12.

5- أحمد التلمساني، نفح الطيب، ج3، ص142.

6- ابن جبير، الرحلة، ص5.

7- احمد التلمساني، نفح الطيب، ج3، ص142.

8- الموسوعة الحرة، 2 ديسمبر 2013م، ص1.

9- لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، تحقيق، محمد عبد الله، ط4، 2001م، ج2، ص231.

10- ابن جبير، الرحلة، ص5.

11- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، طبعة دار الكتب، ج6، ص221.

12- قحطان بيرقدار، أدب الرحلات، مقال منشور في 29. 9. 2009م، ص1.

13- سيد حامد النساج، كتاب أدب الرحلات، ص1.

14- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

15- ابن منظور الأفريقي، لسان العرب، دار صادر، لبنان، ج11، ص279.

16- أبو القاسم التكروري، دراسة في ادب الرحلات عند علماء أفريقيا، تحقيق الهادي مبروك الدالي، دار الكتب الوطنية، ط2004م، ص9،8.

17- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م، ص79.

18- قحطان بيرقدار، أدب الرحلات، ص1.

19- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص1.

20- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار مكتبة الهلال، تحقيق، حجر عاصي، بيروت، لا.ط، 1988م، ص336.

21- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص1.

22- أحمد التلمساني، نفح الطيب، ج3، ص146،145.

23- ابن جبير، الرحلة، ص13.

24- المصدر نفسه، ص15.

25- المصدر نفسه، ص58.

26- المصدر نفسه، ص234، 235.

27- المصدر نفسه، ص231، 232.

28- المصدر نفسه، ص297،296.

29- المصدر نفسه، ص59.

30- المصدر نفسه، ص141.

31- المصدر نفسه، ص168.

32- المصدر نفسه، 260.

33- المصدر نفسه، ص205.

34- المصدر نفسه، ص97.

35- المصدر نفسه، ص98-101.

36- المصدر نفسه، ص296، 297.

37- المصدر نفسه، ص31،30.

38- المصدر نفسه، ص103،102.

39- المصدر نفسه، ص298،297.

40- المصدر نفسه، ص299.

41- المصدر نفسه، ص7.

42- المصدر نفسه، ص320.

43- القلقشندي، صبح الاعشى، تقديم ، فوزي أمين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، لا.ط،2004م، ج6، ص217.

44- ينظر: بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، مطبعة الرسالة، ط2، 1960م، ص132.

45- أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، دار الفكر بيروت، ط12، 1978م، ص385.

46- ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق كمال عويضة، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1998م، ج1، ص147.

47- رحلة ابن جبير، ص268،267.

48- المصدر نفسه، ص214.

49- المصدر نفسه، ص305.

50- مقدمة ابن خلدون، ص570.

51- سورة الرحمن، الآية22.

52- رحلة ابن جبير، ص276.

53- سورة النصر، الآية1.

54- رحلة ابن جبير، ص294.

55- المصدر نفسه، ص288.

56- المصدر نفسه، ص223.

57- المصدر نفسه، ص225.

58- المصدر نفسه، ص37.

59- المصدر نفسه، ص214.

60- المصدر نفسه، ص217.

61- المصدر نفسه، ص58.

62- عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، ط2، 1972م، ص147.

63- رحلة ابن جبير، ص6.

64- المصدر نفسه، ص59.

65- المصدر نفسه، 281.